

بقايا الفصح

إذا قابلنا بين لغتنا العامة في هذه الأيام وبين ماتناحي الينا من بعض بقايا اللغة العامة في أيام بني العباس وجدنا ان لغتنا العامة اعلی طبقة من اللغة العامة في ذلك العصر ، فمن آثار تلك اللغة ما جاء في الاغانى في كلام صاحبه على ابراهيم الموصلي ، قال : ذكر ابن خرداذبه وهو قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه ان سبب نسبة ابراهيم الموصلي الى الموصل انه كان اذا سكر كثيراً ما يفتني على سبيل الوارع :

أناجت من طرق موصل أحمل قلال خمريا
من شارب الملوك فلا بد من سكريا

أفلا نرى ان هذه التراكيب العامة دون تراكيبنا العامة في عصرنا ، فمن قول العامة في دمشق : ماشبت منه ، اي من النظر اليه ، اما لفرط جماله أو لطفه ، واما لحسن حياته أو غير ذلك ، وقد جاء في ذيل الامالي مايلي : قال الخجاج لثابت بن قيس الأنصاري : ارث ابني أبان ، فقال له : اني لأجد به ما كنت أجد بـجسن (ابن ثابت) قال : وما كنت تجده ، قال : مارأيت قط فشبت من رؤيته ...
فهذه لغة لا تخلو من آثار اللغة الشعرية ...

ومن قول العامة في دمشق : ركبوها عليه ، وهم يريدون بذلك أنهم نسبوا اليه كلمة أو مسأله إما من باب الافتراء وإما من باب الظرف ، فاذا قالوا : ركبوا عليه كذا أو كذا ... ارادوا مرة الافتراء المطوي على شيء من الأذى ومرة السخرية المطوية على شيء من الظرف ، جاء في الامامة والسياسة لابن قتيبة في كلام على خروج علي من المدينة ان أخاه عقيلاً كتب اليه كتاباً جاء فيه : واني خرجت معتمراً فلقيت عائشة ، معها طلحة والزبير وذووهما وهم متوجهون الى البصرة ، قد أظهروا الخلاف ونكسوا البيعة وركبوا عليك قتل عثمان ...

فان عقيلاً يريد بالتركيب في هذا المقام الافتراء المشتمل على الأذى ،
وقد اشتقت عامتنا من هذه المادة امم المرّة فقالت : تركيبة ، اي مسألة ملفقة .
وانتقل الآن الى كتاب الأغاني ، فاستخرج منه طائفة من التراكيب
الفصيحة التي لا تزال تجري على السنة عامتنا ، واني لأعتقد ان كتاب الاغاني
اذا خلد في تاريخ أدبنا على تعاقب العصور فان من جملة أسباب خلوده هذه
اللغة السهلة التي لا تزال نرى بقاياها في عامة أهل الشام
من قولنا في دمشق : اجعل طريقك عليه ، أي مرّاً به ، وهذا من
كلام العامة وبخاصة ، جاء في الأغاني ، في أخبار اسحق بن ابراهيم مايلي :
حدث الزبير بن حماد قال : دخلت يوماً على الفضل بن الربيع مسلماً ، فقال
لي : قد عزمت غداً على الصبوح ، فصر اليّ بكرة ، فكنت أنا والصبح
كفرسي رهان ، فلما اصبحت من غدٍ جعلت طريقي على اسحق بن ابراهيم . .
ومن قول العامة : فلان سقط من عيني ، وهم يريدون بذلك انه عمل
عملاً قبيحاً اما انه كذب أو سرق أو أحتال أو غير ذلك ، وهذا تركيب
فصيح ، فقد نقل صاحب الأغاني في أخبار يحيى المكي ونسبه كلاماً عن محمد
ابن أحمد بن يحيى المكي الذي قال : عمل جدي كتاباً في الاغاني وأهداه
الى عبد الله بن طاهر ، وهو يومئذ شاب حديث السن ، فاستحسنه وسرّه به ،
ثم عرضه على اسحق ، فعرفه عواراً كثيراً في نسبه ، لان جدي كان
لا يصحح لأحد نسبة صوت البتة ، وينسب صنعته الى المتقدمين وينحل
بعضهم صنعة بعض ضناً بذلك على غيره ، فسقط من عين عبد الله ، وبقي
في خزائنه . . . فالضمير في سقط يرجع في هذا المقام الى الكتاب لا الى
يحيى المكي فالكتاب سقط من عين عبد الله بن طاهر لان فيه تحليطاً كثيراً .
ومن هذا القبيل قول العامة : مارأيت اسقط من فلان . . والمادة الواحدة
تدل على شيء من الازدراء والاحتقار ، فقد جاء في الاغاني في أخبار
بصص جارية ابن نفيس مايلي :

فقبلها وغنته ثم قالت : أبا اسحق : رأيت اسقط من هؤلاء ، يدعونك
ويخرجونني اليك ولا يشترون ربحاً بدرهم ...

ومن تراكيب العامة في دمشق : لاتدخل بيني وبينه ، وهو مفهوم ، وقد
جاء هذا التراكيب في الاغانى في اخبار اسحق بن ابراهيم ، فقد نقل عون
ابن محمد حديثاً عن اسحق ، قال اسحق : لاعبت الفضل بن الربيع بالترد ،
فوقع بيننا خلاف ، فحلف وحلفت ، فغضب علي وهجرني ، فكبت اليه
أبياتاً وعرضت الأبيات عليه فلما قرأها ضحك وقال : أشد من ذنبك انك
لاترى لنفسك بذلك الفعل ذنباً ، والله لولا اني ادبتك أدب الرجل ولده
وان حسنك وقبيحك مضافان اليّ لأنكرتني ، فاصح الآن قلب عون ،
وكان يحجبه ، فخطبته في ذلك ، فكلمني بما كرهت ، فقلت : أتدخل بيني
وبين الأمير ، اعزه الله ...

ومن قول العامة في دمشق : ماله معنى ، أي مال هذا الامر او العمل سبب أو
حاجة أو مقتضى أو ما شابه ذلك ، وقد جاء في الأغانى في أخبار ابراهيم
الموصلي خبر طويل ذكره حماد بن اسحق عن أبيه ، وهو يتعلق بشراء الرشيد
لجارية من ابراهيم الموصلي بستة وثلاثين الف دينار ، وقد طلب الرشيد الى
الفضل بن الربيع ان يتوسط بينه وبين ابراهيم الموصلي حتى يحط له ابراهيم من
ثمنها ستة آلاف دينار ، فحط اثني عشر الف دينار ، قال اسحق لابنه حماد
بعد هذه الخطيطة : وكنت قد أتيت جدك فقلت : ما كان لخطيطة هذا المال
معنى ، وما هو بقليل ، فتغافل عني وقال : أنت أحق ، أنا أعرف الناس به ،
والله لو أخذت المال منه كمالاً ماأخذته الا وهو كاره ، ويحقد ذلك علي ،
وكنت أكون عنده صغير القدر ، وقد مننت عليه وعلى الفضل ...

ومن التراكيب الفصيحة التي تستعملها العامة قولهم : عليه موعد ... وقد
جاء في الأغانى في اخبار ابن مسحج ونسبه في خلال قصة طريفة تتعلق بقبض
عامل الحجاز مال ابن مسحج ونفيه مايلي : ثم قال : يا فتيان ! هل فيكم من

يضيف رجلاً غريباً من اهل الحجاز ، فنظر بعضهم الى بعض ، وكان عليهم موعد ان يذهبوا الى قينة يقال لها برق الاثاق !

ومنها : كبسوا بيته ٠٠٠ وهو مفهوم تريد العامة بذلك انهم دخلوا بيته وفتشوه وقد جاء في الاغانى في اخبار ابراهيم الموصلي حديث لحماد بن اسحق عن جده ابراهيم قال : فلما ولي موسى الهادي الخلافة استتر جدي منه ولم يظهر له ، بسبب الايمان التي حلقه بها المهدي ، فكانت منازلنا تكبس في كل وقت ٠٠٠ ومن قول العامة في دمشق : عفت حياتي ٠٠ وايس في كلام بأس مثل مافي هذا الكلام فاذا عاف الرجل حياته فما يطيب في نظره شيء من الدنيا ، وقد جاء هذا التركيب في شعر ابراهيم الموصلي ، قاله لموسى الهادي :

ولقد عفت في هواك حياتي وتغربت بين أهلي ومالي

ومن آثار اللغة الشعرية التي بقيت في عامة دمشق قولهم : الله أوصى بالجار ٠٠٠

وقد ورد هذا التركيب في شعر الأحوص اذ قال :

تنتان لأذنو بوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب

اما الخليل فلست فاجعه والجار أوصاني به ربي

ومن لغة الطعام قولهم : حطوا على السفرة لونين أو ثلاثة أو اربعة ألوان ،

وهم يريدون بذلك أنواع الطعام ، وقد جاء في الاغانى في أخبار أبي العتاهية

مايلي : قال مسلم بن الوليد : كنت مستخفاً بشعراي العتاهية ، فلتيني يوماً فسألني

أن اصير اليه ، فصرت اليه ، فجائني بلون واحد فأكلنا ٠٠٠

* * *

أظن ان هذه التراكييب التي ذكرتها في هذا المقال وفي مقالات متقدمة أفسح

من التركيب الآتي :

أناجت من طرق موصل أحمل قفل خمرياً

أفلا نرى كل يوم دليلاً على ان دمشق حفظت من آثار لغتنا الفصيحة مالم

تحفظه غيرها من المدن .

شفيق جبزي